﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣﴾ [الشّعراء: 200 - 203]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من نفي الإيمان، إلى أسباب الكُفران، إلى مآلِ الإجرام

لمّا نفى القرآن عنِ المشركين الإيمانَ بسبب كفرهم العتيد، ناسب أن ينتقل إلى بيانِ أنَّ عدم إيمانهم راجعٌ لكِبْرهم وصلَفِهم، فقد سلكه اللّه في قلوبهم فضلًا عن أسماعهم، وأكَّد أنَّهم لن يؤمنوا حتى يروا العذابَ الأليم؛ فهو انتقالٌ من بيان أسباب عدمِ الإيمان، إلى بيان حالهم في المآل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾: (سلك) أصلٌ يدلُّ على نفوذ شيءٍ في شيء، يقال سلكت الطَّريقَ أَسلُكُه، وسَلكت الشّيءَ في الشّيء: أنفذْته، والطَّعْنَة السُّلْكَى، إذا طَعَنَه تِلقاءَ وجهِه، وسَلَكْتُ الشّيءَ في الشّيء فانْسلَك أَي أَدخلته فيه فدخل[1]، ومعناه في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: أدخلنا ومكّنّا وقرّرنا.

2) ﴿بَغۡتَةٗ﴾: (بغت) أصلٌ واحدٌ لا يُقاس عليه، منه البغْت، وهو أَنْ يفجَأَ الشّيءُ[2]؛ بغَتَه، أي فاجأه، ولقيته بغتة، أي فجأة، والمباغتة: المفاجأة[3]؛ ومنه قولُ اللّه تعالى عن عذاب المجرمين: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾.

3) ﴿مُنظَرُونَ﴾: (نظر) أَصْلٌ يدلّ على تَأَمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنَتِه[4]، ثمّ أُخذ معنى الإمهالِ والانتظارِ من التّرقُّب والتّفحُّص في المواجهة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بغت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).

بالعَين، فإنَّ التّفحّص والتّأمّل يستغرق زمنًا[1]؛ تقول العرب: أنظرني، أي انتظرني قليلا، ويقول المتكلّم لمن يُعجله: أنظرني أبتلعْ ريقي، أي أمهلني، والإنظار: التّأخير والإمهال، يقال: أنظرته أنظره، أي أمهلته وأخّرته، واستنظره: طلب منه النّظِرة واستمهله، وأنظره: أخّره[2]، والمقصود بطلب الإنظار في قول الله تعالى ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: أنَّهم يطلبون الإمهال عند مجيء العذاب بغتةً.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنتِ الآياتُ أثرَ القرآن في قلوب المجرمين، وأنَّه تمكَّن منهم حتّى عرفوه، ومع ذلك فلم يؤمنوا؛ ثم أكَّد هذا المعنى مُبيِّنًا أنَّهم مُستمِرّونَ على المُكابرةِ بعدمِ الإيمانِ حتَّى يحُلَّ بِهِمُ العذابُ بغتةً، ومن ثمَّ يطلبون الإمهال والإنظارَ.

معرفةُ الحقِّ غيرُ كافيةٍ في الإيمانِ ونجاة العباد

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

ورد قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على طريق الفصل استئنافًا بيانيًّا، فقد أثار ما قبلها سؤالًا: كيف كفروا بالقرآن مع توارُدِ الحُجج والأدلَّة على أنَّ الله تعالى نزّل القرآن على قلب رسولِ الله ﷺ وأنَّه من عند الله تعالى، فإنَّ ظهور هذه الحجج يقتضي ألّا يكفر به أحدٌ؟ فقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[3].

عجائبُ الكفر تدعو إلى بوادر الاستفهام

بلاغةُ التّشبيه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مفيدًا التّشبيهَ على أمرٍ قد سبق، أو أمرٍ حاضرٍ

من بديع التّشبيه تشبيهُ الشَّيء بنفسِه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 194.

في ذهنِ المخاطَبِ، كان اسمُ الإشارة الذي للبعيد (ذلك) للتّعبير عن المشبَّه به الذي يكون مركّبَ الصّورة والمعنى، فهوَ تَشْبيهٌ لِلسُّلوكِ المَأْخوذِ مِنْ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ بِنَفْسِه لِغرابَتِه، أَي: هوَ سُلوكٌ لا يُشْبِهُهُ سُلوكٌ، وهوَ أَنَّهُ دَخَلَ قُلوبَهُم بِإبانَتِه، وعَرَفوا دَلائِلَ صِدْقِه مِنْ أَخْبارِ عُلَماءِ بَني إِسْرائيلَ، ومَعَ ذَلِكَ لَم يُؤْمِنوا بِهِ[1]؛ فأوجزَ معناه التّركيبيَّ في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به ثمّ ذكر المشبَّه، فيكون هذا التّركيب من قَبيل التّشبيه المركّب.

عـــدمُ إيـمـانِ المجرمين، حتّى يـــرَوُا الـعـذابَ الأليمَ سنّةُ الله الكَونيَّةُ فيهم

ويحتمِلُ أن يكونَ التَّشْبيهُ في قول اللّه تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَشْبيهًا بَيْنَ سَلْكَيْنِ، فالتّشبيهُ بين حالَين يَقْتَضي في الأصلِ تَغايُرَ مَنْ حَلَّ به كُلٌّ منهما، فالمَعْنَى: مِثْلُ ذَلِكَ السَّلْكِ في قُلوبِ قُرَيْشٍ، سَلَكْناهُ في قُلوبِ مَنْ أَجْرَمَ - أَرادَ بِهِم مُجْرِمي كُلِّ أُمَّةٍ - لاشْتِراكِهما في عِلَّةِ السَّلْكِ وهوَ الإجْرامُ؛ أَيْ إِنَّ هَذِه عادَةُ اللّه فيهِم، أَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ حَتَّى يَرَوُا العَذابَ، فلا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ بَعْدَ تَلَبُّسِ العَذابِ بِهِم، وهَذا على جِهَةِ المِثالِ لِقُرَيْشٍ، أَيْ هَؤُلاءِ كَذَلِكَ، وكَشْفُ الغَيْبِ بِما تَضَمَّنَتْهُ الآيَةُ يَوْمَ بَدْرٍ[2]؛ وهو يُؤَكِّد أنّ الكفرَ كُلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ، مَهْما اختلف الزَّمانُ والمكانُ.

دلالةُ إسنادِ فعل السّلك إلى نون العظمة ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾:

أُسند فعلُ السَّلك في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى نون العظمة لبيان أنَّ الأمور كلَّها بيد اللّه الواحد الأحد، وأنَّه لا يَدخُلُ شيءٌ في قلوبِ العبادِ إلّا بإذنه.

تعيينُ مرجع ضميرِ مفعولِ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾:

يحتمل عَـودُ الـضّـمـير على الـقـرآن أو على الكُفران

ضميرُ المفعول لفعل السّلك من قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إمّا أن يعود على ما عادَتْ عليه الضَّمائِرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 194.
(2) أبو حيّان البحر المحيط: 8/ 192.

وهو القرآن، أي: مكّنّا القرآنَ في قلوبهم حتّى فهموه، ومع ذلك جحدوه وأنكروه، وإمّا أن يعود على الكفر والتّكذيب، وأَرادَ به أَنَّهُ صارَ ذَلِكَ التَّكْذيبُ مُتَمَكِّنًا في قُلوبِهِم أَشَدَّ التَّمَكُّنِ، فصارَ ذَلِكَ كالشَّيْءِ الجِبِلِّيِّ[1].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفية ﴿فِي﴾:

تصويرُ المعاني وتشخيصُها أبينُ في الحجَّةِ والبرهان

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ الظّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهي ظرفيّةٌ حقيقيّة، سواءً حُمِل المسلوكُ على الكفر والتّكذيب، أوِ القرآنِ مع التّكذيب به؛ فهي لإقامة الحجَّة عليهم إذا جعلنا المسلوكَ القرآنَ، ولبيان تمكُّن الجحود من قلوبهم واستقراره فيها استقرارَ الظّرف في المظروف إذا جعلنا المسلوكَ الكفرَ والتَّكذيب.

بلاغةُ استعمالِ مفردة القلوب:

القلوب هي موضعُ التّمييز والإرادة، ومجمعُ الأحاسيس والشعور

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ القلوب في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وخصَّه من بين سائر أعضاء الإدراك، لأنّه موضع التّمييز والفهم والإرادة، ومجتمعُ المشاعر من الخوف والوجل والخشية والتّرغيب والتّرهيب، وقد شبّه القلوبَ بالوعاء، الذي يدخله المسلوك، وقرينةُ ذلك: حرفُ الظَّرفيَّة؛ فإذا كان المقصودُ القرآنَ فسريعًا ما يُخرج، وإذا كان المقصودُ الكفرَ فهو ماكثٌ لابثٌ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

الإجرامُ أعظمُ أسباب التّكذيب

دلَّت إضافةُ القلوب إلى لفظ المجرمين في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على بشاعة تلك القلوب وسوادِها، حيث اكتسبت ظلمتَها من ظلمات أصحابها، وبيّنت الإضافةُ سببَ التّكذيب واضحًا جليًّا للعيان، وهو الإجرام الذي اتَّصف به أصحابُ تلك القلوب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 191.

بلاغةُ الإظهارِ في ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وفائدتُه:

تـكـثـيرُ المعـاني أولى من قصرِها على معيَّن

لم يخترِ النَّظمُ مسلكَ الإضمار في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، حيث لم يقل: (في قلوبهم)، بل أتى بالاسم الظّاهر: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، تشنيعًا عليهم، وإظهارًا لاستحقاقهم العذابَ بسبب إجرامهم، وتعميمًا لقضيّته، حتّى لا تقتصر على كفّار مكّةَ، فتكون أوقعَ في الزّجر لهم ولمن سلك مسلكَهم في كلِّ زمان ومكان.

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

يحتملُ التّعريفُ أن يكون للعهد أوِ الجنس

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ من قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ للعهد الذّهنيّ، أي: المجرمين المعهودين من كفّار مكّة، وفي هذا تبشيعٌ لجُرمهم، حيث صاروا علَمًا في الإجرام والضّلال، وتحتمل أن تكون (أل) للجنس، ويكونَ اللّفظُ المعرَّفُ به قد دلَّ على عموم المجرمين بدلالة (أل) على الجنس، ليشملَ كلَّ من نهَج نهْجَهم، وصار على طريقهم في الضّلال.

توجيهُ تخصيصِ الإجرام بالذِّكر:

تكذيبُ القرآن أبشعُ صوَرِ الإجرام

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإجرام في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دون أن يقال (كذلك سلكناه في قلوب المشركين)، بل عبَّر عَنِ المشركينَ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّ كُفرَهم بعْدَ نُزول القرآن إجرامٌ[1] وإنكار وجَحد بعد ظهور الدّليل والبرهان.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ مع آية الحجر:

دفـعُ أوهـامِ الأفـهـام من معتنيات النَّظم القرآنيّ

جاء قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بصيغة الماضي، بينما جاء في سورة الحجر بصيغة المضارع: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢﴾ [الحجر: 12]، وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ: فوجْهُ اختيارِ المضارعِ في آيةِ الحِجْرِ أنَّهُ دالٌّ على التّجدُّدِ، لئلّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 194.

يُتَوَهّمَ أنَّ المقصودَ إبلاغٌ مضَى، وهو الذي أُبلغ لِشيَعِ الأوَّلينَ المتَقدِّمِ ذِكْرُهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾ [الحجر: 10]، فيُتَوَهَّمَ أنَّهمُ المرادُ بالمجرمينَ مع أنَّ المرادَ كفّارُ قريشٍ، وأمّا هذه الآيةُ فلَم يَتَقَدَّم فيها ذِكْرٌ قريبٌ لغيرِ كفّارِ قريشٍ، فناسَبَها حكايةُ وقوعِ هذا الإبلاغِ مُنذُ زمنٍ مضى، وهم مُستمِرّونَ على عدمِ الإيمانِ[1].

بلاغةُ مَوقِعِ جُملَةِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مِن سابِقَتِها:

المعاني المتتابعة تستكمل الاتِّساقَ السّياقيّ والتّلاحم البلاغيّ

جاء قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ مفصولًا عمّا قبله لكمال الاتّصال، حيث وقَعتْ من سابقتها بمنزلةِ البيان والتّأكيد، ووقعت مَوقِعَ المَوضِّح والمُلَخِّص؛ لأنَّ السّابق وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مَسوقٌ لإثبات عدم إيمان المشركين، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنّهم لا يزالون على التّكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيدَ، ويجوز أن يكون حالًا من ضمير الهاء في ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ أو حالًا من ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ وعلى اعتبار الحاليّة فلا فصلَ؛ لأنّها حينئذٍ جملةٌ لها مَوقِعٌ منَ الإعراب[2].

غرضُ النّفي بأداة ﴿لَا﴾:

تنزيل انتفاء سعي الكافرين للإيمان على واقعهم

النّفيُ بأداة ﴿لَا﴾ في قول الله تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ يستغرق الحالَ والمستقبلَ، فهو قطعٌ بعدم إيمانِهم؛ وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، في تيئيسه منهم، وتهدئةِ نفسِه وطَمأنَتِها.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ المنفيِّ، للدّلالةِ على استمرارهم في عدم الإيمان، ويَقوَى هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337.

الاعتبارُ في احتمال حاليَّة الجملة، أي: يستمرّون على ما هم عليه من التّكذيب، وذلك شأنُهم؛ فهي حالٌ مقارِنة لازمةٌ، ولذلك كان النّفيُ داخلًا على المضارع؛ لأنَّ فيه تصويرًا لعدم إيمانهم، وإحضارًا لصورته إذ هم مادّيّون حسّيّون، لا يُؤمنون إلّا بالمحسوسات.

نكدُ المشرك يكمنُ في تكذيبه وعناده المستمرّ على ذلك

نوعُ باءِ ﴿بِهِۦ﴾ وفائدتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ للملابسة والإلصاق، وهي تُشير إلى نفي ملابسةِ إيمانِ قلوبِهم للقرآن.

نكتةُ التّعبير بحرف انتهاء الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾:

استعمل النَّظم أداة ﴿حَتَّىٰ﴾ الغائيّة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ لإقرار مجموعةٍ منَ المعاني المكتنزة، منها: التّقضّي شيئًا فشيئًا، وبيانُ غايةِ عدمِ الإيمان، أي: فحينئذٍ ينتهي عدمُ الإيمان بالإيمان؛ ومنها: أنَّ الإيمانَ لا ينفعهم حين يرون العذاب؛ ومنها: الحثُّ على المبادرة إلى الإيمان قبل أن يحلَّ بهم، فما زالت الفرصة سانحةً أمامهم؛ ومنها: أنَّ العذاب الأليم مُلجِئٌ للإيمان بالقرآن وبالنّبيّ ﷺ حين لا ينفعهم الإيمانُ، ليفيد بلازمه عِظَمَ العذاب وظهورَ قدرة الله تعالى فيه.

إذا وقع العذابُ الأليم لم ينفع إيمانٌ صاحبَه

دلالةُ استعمالِ فعل الرّؤية ﴿يَرَوُا۟﴾:

انتقى النَّظمُ فعلَ الرّؤية في قول الله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ للدّلالة على أنَّ إيمانَهم لا يقع بالعقل، بل لا بدّ أن يروه بأعينهم؛ فلا اعتدادَ عندهم بالغيبيّات، وإنّما ينحصر إيمانُهم في المحسوسات.

طلب الجاحدين للعلامات الحسّيّة لا يوقِفُه إلّا أن يغرقوا في أشدّ المحسوسات إيلامًا وهو العذاب الأليم

فائدةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ من قول الله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ للجنس، والمرادُ به العذابُ المُلجِئ للإيمان، أي: حين لا ينفع الإيمان؛ والعذاب هو الموت بالسّيف، أو عذابُ الآخرة، أيُّهما يقع أوّلًا.

نكتةُ وصْفِ العذاب بصفة ﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾:

وُصف العذابُ بالأليم في قول الله تعالى ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، وفعيل هنا بمعنى اسم الفاعل، أي العذاب المُؤلِم: للمبالغة في شدّة هذا العذاب، وقوّةِ إيلامه في الجسَد والرّوح.

براعةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَيَأۡتِيَهُم﴾:

بيانُ ارتباطِ رؤية العذاب ببغتته وتداخلِ أنواعِ الشَّدائد

دلَّتِ الفاء الدّاخلةُ على فِعل الإتيان في قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ على التّعقيب مع الترتّب في الوجود والشّدّة؛ فليس المعنى إردافَ رؤية العذاب بالبغتة، إذ ليس الإتيان مرتّبًا على الرّؤية ولا واقعًا عَقِبَها، كيف وهما متلازمان؟! وإنّما المراد الدّلالةُ على الانتقال من شدّة إلى شدّة، ومن عذابٍ إلى عذابٍ أفظعَ، كأنَّه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتّى تكون رؤيتُهم للعذاب، فما هو أشدّ منها وهو لحوقُه بهم مفاجأة[1]؛ فالفاء، مع إفادتها التّعقيبَ، تفيد ترتيبَ الإخبار، فهي هنا للتّرتيب الذِّكْريّ.

وتفيد أيضًا عطفَ المفصّل على المجمل، لبيان حالة رؤيتِهم العذابَ وتصويرها، بغرض تفصيل المجمَل؛ فقد أُجمل في الجملة السابقة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، ثم فُصِّل هنا شدّة العذاب وكيفيّة نزوله فقال: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، تفصيلًا للمجمَل، وتصعيدًا للشّدّة، وتَرَقّيًا في وصف فُجاءة العذاب.

مناسبةُ استعمالِ مُفردة الإتيان:

أفخمُ الألفاظِ ما ناسب السّياقَ والنَّظم

ناسب استعمالُ مفردة الإتيان في قول الله تعالى: ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ السّياقَ، فالإتيان: مجيءٌ بسهولة، وعبّر به دون المجيء أو الأخذ، ليدلَّ على السُّرعة والفُجاءة؛ فلم يقل مثلًا: (يأخذهم بغتة)، لتكتمل عناصرُ المفاجأة، وهي أشدُّ على النَّفس، وأوقع في العذاب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 337، 338.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنية في إتيان العذاب:

تشخيصُ المعاني أرسخُ في تثبيت الحقائق

ضمير الفاعل لفعل الإتيان من قول الله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعود على العذاب الأليم؛ وقد جاء الكلام على طريقة الاستعارة المكنيّة، حيث شُبّه العذابُ بشخصٍ يأتي، فحُذف المشبَّه به وذُكر المشبَّه، ودلّ عليه بلازمه وهو الإتيان، وفيه تشخيصٌ واضح للعذاب بصورةِ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ يملك القدرةَ على الإتيان بنفسه؛ ووراءَ ذلك مبالغةٌ في شدّة هذا العذاب.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿بَغْتَةً﴾:

البغت هو الفجاءة من حيث لا يُحتسب، وقدِ استُعمل اللّفظُ في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ليدلَّ على أنَّه يأتي من حيث لا يتوقّعون؛ فجُمع عليهم العذابُ المادّي والمعنويّ.

دلالةُ وقوعِ ﴿بَغْتَةً﴾ حالًا:

إذا وقع العذاب فلا إنظارَ ولا إمهال

دلَّت الحاليّة في لفظ البغت من قول الله تعالى ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ على تلبُّس إتيان العذابِ بالمباغتة والفُجاءة، إذ لا وقتَ لديهم للتّفكير أوِ النّجاة، أوِ البحثِ عن وسائل النَّجاة أوِ الإمهال والتَّأخير؛ ولذا جيء عَقِبَه بطلبهم الإمهالَ والنّظِرة، دون مجيب.

فائدةُ واو الحال وبلاغتُها:

أعظمُ الفجعِ وأكبرُ الفزعِ غفلةُ المعذَّب وفجاءةُ العذاب

لمّا كان البغتُ هو الإتيان على غفلة، حقّق ذلك بجملة الحال فقال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ليؤكِّد على المباغتة والمفاجأة، دون توقُّعٍ أو تأهّب لوقوع العذاب؛ وهذا أشدّ وأنكى، فاجتمع عليهم المفاجأة الذّاتيّة في العذاب، وعدمُ الشُّعور من قِبَلِهم، فهي غفلةٌ صاحَبَها فجاءةٌ مقصودة، وهذا من أعظم العذاب المُفجِع.

دلالةُ الجملةِ الاسميّة:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على الثّبوت والدّوام على حال الغفلة، وعدم التأهّب لنزول العذاب، ودوامهم على تلك الحال.

فائدةُ مجيء المسند جملةً فعليّةً:

جاء المسند في قول الله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهو الخبر ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملةً فعليّة منفيّة، ليدلَّ على انعدام شعورهم بأدنى درجات الخوف أوِ القلق، فقد كانوا في مأمنٍ واستكانوا إليه؛ فإنَّ نفي الشّعور بصيغة المضارع إثباتٌ لتجدُّد الغفلة، مع ما فيه من استحضارٍ لِما كانوا عليه من صورة الغفلة والأمن، وأنّه لم يخطر ببال أحدٍ منهم العذابُ.

انعدامُ الشّعور إثباتٌ لتجدُّدِ الغفلة

سببُ حذفِ متعلَّق الفعل ﴿يَشْعُرُونَ﴾:

حُذِف متعلّق فعلِ الشّعور من قول الله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: إمّا للعموم، فهو نفيٌ لعموم الشّعور عنهم، ففيه تنزيلهم منزلةَ البهائم، وهم خَليقون بها؛ وإمّا لتقدير محذوفٍ خاصٍّ، وتقديرُ الكلام: (وهم لا يشعرون بإتيانه)، فحُذِف الجارُّ والمجرور لقرينة السّياق الدّالة عليه، إيجازًا في اللفظ، وحفاظًا على الفاصلة المتوازنة.

تنزيلُ المشركين منزلةَ العجماوات بعدم الشُّعور

فائدةُ العطفِ بالفاء في ﴿فَيَقُولُواْ﴾:

الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لإفادَةِ التَّعْقيبِ في الوُجودِ بعد ما جاء في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾؛ أي بَوحُهم بتمنّي الإمهالِ صادقٌ بأَسْرَعِ تَعْذيبٍ، فتَكونُ خَطِرَةً في نُفوسِهم قَبْلَ أَنْ يَهْلَكوا في الدُّنْيا، أَوْ يَقولونَ ذَلِكَ ويُرَدِّدونَهُ يَوْمَ القيامَةِ حينَ يَرَوْنَ العَذابَ وحينَ يُلْقَوْنَ فيهِ[1].

التّعقيبُ إشارةٌ إلى التّأزّم النّفسيّ

غرضُ الاستفهامِ المجازيّ بـ﴿هَلْ﴾:

﴿هَلْ﴾ في قول الله تعالى ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في اسْتِفْهامٍ مُرادٍ بِه التَّمَنّي مَجازًا[2]، وهو تمنٍّ يمتزج بالحسرة والخسران المبين، والتَّأسفِ على ما حلَّ بهم، ولا مُجيرَ ولا مُغيث؛

من معاني الاستفهام التّمنّي والحسرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 195.

على أنَّ الإمهال والإرجاء والإملاء لا تغني مع نزول العذاب بعدها ووقوع النّقمة، لكنّها مجرّد أماني، وإملاءات النّفس، وخطرات القلب عند نزول ما تكره، وهذا على جهة التّمنّي منهم والرّغبةِ حيث لا تنفع الرّغبةُ[1].

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿مُنظَرُونَ﴾:

أمنيةُ العاجز وأملُ اليائس في طلب الإنظار

جاء استعمالُ مفردة ﴿مُنظَرُونَ﴾ على لسانِ المشركين في قول الله تعالى ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ للدّلالة على رغبتهم في الإمهال ساعةً يُراجِعون فيها أنفسَهم، ويرجعون عن غَيِّهم وضلالهم، لكنَّها أمنيةُ العاجِز، وأملُ اليائس، وفيها من الذّلة والمهانة ما يدعو العاقلَ أن ينأى بنفسه عن مثل هذه المواقف، فإنَّ طلبَ الإنظار مع نزول العذاب لا ينفع أحدًا، والإنظار هو الانتظار، فكيف بالدَّليل أن يُطالب صاحب الجبروت أن يُنظره ساعةً منَ الزمن؟!.

فائدةُ التّعبيرِ بالجملة الاسمية:

أماني المفرّطين فرَطٌ على النّار

جيءَ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ ﴿نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ للدّلالة على الثَّباتِ، أَي: تَمَنَّوْا إنْظارًا طَويلًا يَتَمَكَّنونَ فيه مِنَ الإيمانِ والعَمَل الصّالح[2]؛ وهي تعكس حديثَ النّفس وهواجِسَها، لكن دون جدوى.

فائدةُ تقديمِ المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾:

تصويرُ الكرب والشَّدّة والضّيق الشَّديد

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ على الأصل في التّرتيب بتقديم المسنَد إليه على المسنَد في قوله تعالى: ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾، لإفادة الاهتمام لا للحصر؛ فهم لا يقصدون قصرَ الإنظار عليهم، وإنّما يعنيهم الاهتمامُ بشأنهم وما هم فيه من كربٍ وضيق وشدّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّلكُ والإدخالُ:

السّلكُ في الحسي والمعنوي، والإدخال في الحسي

السَّلك يعني نفوذَ شيء في شيء، وهو بمعنى الإدخال والتّمكين

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 195.

والتّقرير، ويكون للشّيء الحسّيّ كالسّكّين واليد، وللشّيءِ المعنويّ، كالإيمان والكفر؛ بينما الإدخالُ يكون للشّيءِ الحسّيّ فقط، فناسب استعمالُ السّلك مع القرآن أوِ التّكذيب والكفر على الاختلاف في عَودة عودِ ضمير ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾.

العلمُ والشّعورُ:

العلمُ هو اعتقادُ الشّيء على ما هو به على سبيل الثّقة؛ والشّعورُ علمٌ يوصَل إليه من وجهٍ دقيق، كدقّة الشّعر، ولهذا قيل للشّاعر: شاعر، لفطنته لدقيق المعاني، وقيل للشّعير شعيرًا للشّظيّة الدّقيقة التي في طرفه، خلافَ الحنطة؛ ولا يقال: اللّه تعالى يشعر، لأنَّ الأشياء لا تدِقُّ عنه، وقال بعضُهم: الذَّمُّ للإنسان بأنَّه لا يشعر أشدُّ مبالغةً من ذمِّه بأنَّه لا يعلم؛ لأنّه إذا قال لا يشعر فكأنّه أخرجه إلى معنى العجماوات، وكأنّه قال: لا يعلم من وجه واضح لا خفيّ؛ وهذا على قولِ من يقول إنّ الشّعور هو أن يُدرك بالمشاعر، وهي الحواسّ، كما أنَّ الإحساس هو الادراك بالحاسّة؛ ولهذا لا يوصف اللّه بذلك، وإنّما يوصف بأنّه عالم ويعلم[1].

العلمُ يبدأ بالعقل والتّفكير، والشّعور يبدأ بالمشاعر والحواسّ

الإنظارُ والإمهالُ والتّأخير:

الإنظار مقرون بمقدار ما يقع فيه النّظرُ، والإمهال مُبهَم، وقيل الإنظار تأخير العبد لينظر في أمره، والإمهال تأخيره ليسهل ما يتكلّفه من عمله، والفرق بين الإنظار والتّأخير: أنّ الإنظار إمهالٌ لينظر صاحبه في أمره، والتأخير خلافُ التّقديم؛ ويرشد إليه قولُه تعالى حاكيًا عن هود ﷺ مخاطبًا قومَه: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ [هود: 55][2].

الإنظارُ مقيَّدٌ بالنّظر، والإمهال مبهم، والتّأخير خلاف التّقديم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 255، 254.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»